فضاء الصحراء والسرد السياحي في الرواية الجزائرية
(رواية تيميمون لرشيد بوجدرة نموذجا)

أ.د/ بوداود وذناني
جامعة عمار ثليجي الأغواط

تمهيد :

تناول الكثير من النقاد رواية [تيميمون] لرشيد بوجدرة وانصب اهتمامهم إما على ظاهرتي العنف والإرهاب .أو السيرة الذاتية للكاتب . دون الالتفات إلى تيمة الصحراء التي تتجلى في النص. فالناظر في مجريات أحداث الرواية يجد أن مضمونها يصب في السرد المرتبط بالصحراء بامتياز . فالكاتب قد اختار فضاء الصحراء بكل مكوناته لتفعيل نصه، فكان مسرحا للأحداث . فجاء فضاءا متلبسا بلبوس الحيرة والعجب، والرهبة والجمال والسحر والخوف والعجائبية، وتلك هي حقيقة فضاء الصحراء في النصوص الروائية العربية .

فرواية [تيميمون] تستمد حضورها من فضاء الصحراء، في بنائها الكلي الذي يتأسس من خلال مكونات ذلك الفضاء، لذا نجد السارد يضع المتلقي من البداية في جو الصحراء، وقد أخذ على عاتقه التعريف ببعض مكوناتها، ولكي تستقيم له مسارات الحكي أخذ المتلقي في رحلة سياحية رفقة شلة من السواح الأجانب . أما باقي القضايا الأخرى التي تخللت أحداث النص فهي عارضة . لأننا عندما ننبش في خبايا النص نجد أن إثارتها من طرف الكاتب كان القصد منها لفت انتباه المتلقي إلى ما كان يحدث من عنف واغتيالات في تلك الأيام الدامية .

ومن هنا فهذه المقالة تحاول مقاربة علاقة الرواية الجزائرية بفضاء الصحراء وتفاعلها معه إيجابا أو سلبا من جهة، ومن جهة ثانية تحاول كشف علاقة الرواية الجزائرية بالسرد السياحي .

إشكالية التجنيس الروائي :

تعتبر الرواية من أكثر الأجناس الأدبية صعوبة في التعريف فقد (يجد دارس الرواية صعوبات جمة لوضع تعريف جامع مانع لهذا الجنس الأدبي يحيط بخصائصه الأجناسية والفنية، فينزلها منزلة القواعد المحددة لطرائق الكتابة في هذا الجنس)[1] ومن هنا تلبس هذا الجنس الأدبي بالصعوبة في تحديده وضبط أبعاده، و ذلك راجع (بالدرجة الأولى إلى تماس الخطاب الروائي مع مجموعة من خطابات أخرى من أجناس مختلفة، يعمد الروائي إلى إدماجها داخل نسقه الخاص كي يضفي عليها التلاحم مع الأجزاء الأخرى للعمل الروائي .)[2] وهو الأمر الذي أدى ببعض النقاد إلى الإقرار باستحالة إيجاد تعريف للرواية يمكن الاطمئنان إليه . الأمر الذي جعلها في نظر البعض ممن يهتمون بأنواع السرد، كيانا (لا يملك وجودا طبيعيا أو ايجابيا)[3] ونظرا لتداخلها مع الكثير من المجالات المعرفية الأخرى، فقد تعددت أنواعها تبعا لتعدد المضامين التي تطرقها، فهي (تتسع لفنون من القول كثيرة)[4] فكانت الرواية التاريخية، والرواية البوليسية، والرواية التعليمية، والرواية النفسية ....إلخ . وهذا التعدد يرجع في نظر أحد النقاد إلى (عاملين اثنين : أولهما زمني تاريخي مداره على تطور الرواية عبر امتدادها في الزمن . وثانيهما بنائي فني يفسر بتعدد أشكال الرواية وتنوع طرائقها واختلاف مضامينها مما استوجب تصنيف الرواية إلى أجناس فرعية داخلية . وكل جنس من هذه الأجناس الفرعية قابل لأن يتفرع إلى جنس فرعي أدنى .)[5] فالرواية تتعدد وتتنوع لأنها لعبة فنية معقدة وما كرة.[6] وهي في اعددها وتنوعها تتوقف على القدرة الفنية التي يمتلكها الكاتب، والتي من خلالها يمنحها قوة البقاء، والتأثير في المتلقي، ونظرا للتعدد الذي تعرفه فإن ضبط تلك الفروع تحت مسميات، هو إجراء منهجي القصد منه إزالة اللبس، الذي يمكن أن يقع فيه المتلقي، وإن كان لهذا الأخير دوره في تحديد نوع الرواية من خلال مضمونها . لأن التواصل بينه وبينها (لا يكتمل إلا إذا أدرج النص في جنس فرعي من أجناس الرواية .)[7] وبذلك تتوثق العلاقة بينهما ويصبح للقراءة دورها في إثراء النص .

وإذا كان لكل كاتب نظرته الخاصة للأشياء، وطريقته في التفاعل معها ايجابيا أو سلبيا . فإنه يحاول من خلال عمله الفني تقديم ذلك إلى المتلقي ليتواصل معه . وفي المقابل يقوم المتلقي بالتعامل مع ما يقرأ من منظور ما يمتلك من مرجعيات فكرية . ويلعب تواصله مع النص دورا كبيرا في تحديد الجنس الفرعي للرواية، التي يواصل معها . وهو الأمر الذي حدث مع النقاد

الغربيين كجورج لوكاتش وميخائيل باختين، وبعض النقاد العرب كعبد المحسن طه وعبد البديع عبدالله وغيرهم، ممن تعددت تصنيفاتهم للرواية.[8]

إشكالية الكتابة عن الصحراء :

الكتابة عن الصحراء تعني الكتابة عن عالم مغاير للمألوف، عالم تسكنه الرهبة والخوف والجفاف والأساطير والعجائب . ومن هنا كان على من يكتب عن الصحراء أن يعرف قوانينها وسرها وأساطيرها، وما تخفي وما تظهر . فليس هناك صحراء بدون أساطير، بل هي موطن الأساطير، لأنها عوالم مفتوحة على عجائب الحياة والموت، والحب والكراهية، والصفاء والطهر، والسكون والحركة . كما أنها موطن للهلع والدهشة، والخوف والحيرة والسكر . ففي فضاء الصحراء اللامتناهي تتحرر الروح من قفص الجسد، فمن أحبها مات في عشقها . ومن هنا كانت الكتابة عن الصحراء صعبة، صعوبة الصحراء، عكس الكتابة عن المدينة التي هي موطن مولد الرواية، لذلك نجد النصوص الرواية التي تكتب عن الصحراء قليلة . فالذي يطلع على الرواية العربية ومنها الرواية الجزائرية، يلاحظ قلة حضور المكان الصحراوي فيها، وربما يرجع ذلك إلى اهتمام الكتاب بفضاء المدينة بدعوى أن الرواية وليدة المدينة، من جهة . ومن جهة أخرى لتلك العلاقة التي تربط بين الروائي العربي والمدينة . ورغم قلة النصوص الروائية العربية التي تتناول فضاء الصحراء إلا أن أحد النقاد العرب قد لاحظ (أن الرواية العربية المتعلقة بالصحراء، هي التي استطاعت أن ترقى إلى مستوى التعامل الشامل والعميق مع الصحراء، بتنوعها الغريب وغموضها الذي يتجاوز الحدود، إضافة إلى العلاقة التجادلية بين بعض هذه الروايات والصحراء، فاستطاعت أن تستمد من المكان الصحراوي كثيرا من العناصر التي أكسبتها كثيرا من قيمها الفكرية والفنية .)[9] والنصوص الروائية المقصودة في القول السابق هي قليلة، لأن اهتمام الروائي كان منصبا على المدينة باستثناء الروائي الليبي إبراهيم الكوني .

أما فيما يخص الرواية الجزائرية، فإن حضور الصحراء فيها قليلا . وقد أرجع أحد النقاد العرب ذلك إلى أن الرواية الجزائرية (قد اشتغلت ... بهموم الاستقلال والكفاح المسلح المرير ضد الوجود الفرنسي ... وتابعت بعد ذلك القضايا السياسية والاجتماعية الكبرى التي عاشتها الجزائر بعد الاستقلال .)[10] وهو حكم صائب لأن الروائي نفسه بعد الاستقلال وجد نفسه بين

ملحمة الشعب الجزائري أثناء ثورة التحرير، وبين تلك الحركة الاجتماعية التي بدأ يعرفها الشعب لبناء وطنه، لذا ركز الروائي جهده الفكري والإبداعي لتغطية ذلك . ومن هنا لا نجد من بين الروائيين الجزائريين من تملكته الصحراء، لتصبح هاجسه الأول في الكتابة الروائية . و لذا فلا نجد رواية جزائرية تهتم بالفضاء الصحراوي قبل سنة 1990 حسب علمنا . وأن ظهور الفضاء الصحراوي في الخطاب الروائي الجزائري ترافق مع بداية أحداث العنف التي عرفها الوطن، عندما لجأ بعض الروائيين الجزائريين إلى مدن الجنوب لحماية أنفسهم من القتل . ومن هذا التاريخ بدأ فضاء الصحراء يتلمس طريقه في النص الروائي الجزائري . كرواية تماسخت لحبيب السائح 2002، ورواية بوح الرجل القادم من الظلام 2002، ورواية بحثا عن آمال الغبريني 2004 لإبراهيم سعدي ،ورواية تيميمون لرشيد بوجدرة .

ويجب لفت الانتباه إلى عدم اهتمام الروائي الجزائري بالصحراء يرجع في نظرنا إلى أن الرواية الجزائرية هي وليدة المدينة . لذلك انصب اهتمام الكتاب على المدينة، فأصبحت أدواته التعبيرية لصيقة بفضاء المدينة، وليس بفضاء الصحراء . وما يؤكد ما ذهبنا إليه هو أن السارد في رواية [تيميمون] كان في كل مرة يعود إلى المدينة فهي حاضرة في ذاكرته، لا تنفصل عنها . أما ارتباطه بالفضاء الصحراوي فهو ارتباط مؤقت، و هو و إن تعامل معه، فإن تعامله كان من منظور السائح الأجنبي .

في مفهوم رواية الصحراء :

قد يظهر للبعض أن مصطلح (رواية الصحراء) مصطلح غريب لكن الذي يتتبع الجنس الروائي و تعدد أنواعه يجد أن إطلاق هذا المصطلح على جنس روائي فرعي هو إجراء منهجي راجع لمضمون الرواية . ومن هنا فالرواية الصحراوية هي الرواية التي تتناول في مضمونها الحكي المتعلق بالصحراء، وما يرتبط بها من أماكن لها خصوصية خاصة ولا توجد إلا فيها . وعليه فالكلام عن الرواية الصحراوية يرتبط بالكلام عن السرد الذي يرتبط بالصحراء . (يتميز السرد بقدرته على امتلاك التجربة الإنسانية وتصريفها من خلال جزئيات الحياة المنتشرة في كل شيء، ومن خلال كل شيء، في المواقف والأوصاف وردود الفعل والأحكام البسيطة .)[11]

وكل ذلك يجعلنا نذهب إلى أن رواية الصحراء، هي الرواية التي ترتبط بالصحراء، وتركز على ما له علاقة بها، فهي نوع روائي محكوم في بنيته بالسرد المرتبط بمكونات الصحراء . وتجب الإشارة هنا إلى أن الفضاء الصحراوي في النص الروائي، هو فضاء استعاري بني وفق رؤية الكاتب، بعد إعادة تركيب مشاهده من جديد . (إن الفضاء الروائي، مثل كل فضاء فني يبنى أساسا في تجربة جمالية، بما يعنيه ذلك من بعد أو انزياح (ecart) عن مجموع المعطيات الحسية المباشرة، أي أن مجاله هو حقل الذاكرة والمتخيل .)[12] ومن بين الفضاءات الهامة في الأعمال الفنية فضاء الصحراء، نظرا للخصوصية التي يتميز بها . فتوظيف الفضاء الصحراوي في النص الروائي يثير متعة المتلقي ويشعره بلذة خاصة، كما يشعره بالرهبة والخوف نظرا لما يحمله ذلك الفضاء من تضاد جدلي بين الحياة والموت . ولذلك (كان تحريك المكان الصحراوي من أبرز السبل، وأنجعها وأكثرها جدوى لإخراج المكان من سلبيته المعتادة، ومنحه مقادير أكبر من الدينامية والفعالية، وجعله واحدا من المصادر الرئيسة لصنع الجمال الفني في الرواية، وعاملا يمنحها الخصوصية والقيمة .)[13]

وفي هذا السياق تندرج رواية [تيميمون] فالنص بني أساسا على تيمة الصحراء، فهي أساس وجوده، حيث تردد اسم الصحراء (102 مرة) ولهذا الرقم دلالته القوية في النص . ولذلك نجد أن الرواية بكل مكونات بنائها بنيت فنيا وفق ما يتماشى و السرد المرتبط بالصحراء، سواء ما تعلق بالسارد وعلاقته بفن السياحة الصحراوي، أو المشاهد التي تتحرك فيها قافلة السياح الأجانب . ونظرا لاهتمام الكاتب بالصحراء فقد اعتمد في تعامله معها إستراتيجية، كان القصد منها وضع المتلقي في جو الصحراء وسحرها، بداية باسم الرواية [تيميمون] فهذا الاسم الذي يتردد ذكره في النص (09 مرات) يضع المتلقي في قلب الصحراء . الأمر الذي جعل هوية الفضاء الصحراوي في النص تتضح أكثر لأنها تستمد حضورها من تلك المشاهد الدالة على مكونات الواقع المكاني . فالأمكنة التي تعامل معها الكاتب في نصه لم يتعامل معها من خلال ذكر أسمائها وإنما من خلال بعثها في صورتها المتحركة الدالة على مظاهر جمالها وروعتها، كل ذلك أعطى للنص إيقاعا جميلا وشعرية كبيرة . حيث بعثت الصحراء في النص مجللة بقسوتها وجدبها ورهبتها في مقابل جمال مناظر قصورها وبساتينها ومجاري مياهها وبكل مكوناتها وسحرها .

وأن الفضاء الصحراوي، لم يكن له حضور، في ذاكرة الكاتب، لولا اضطراره إلى ذلك تحت ضغط الخوف من الموت . فلم يكن له ليكتب هذه الرواية لولا هروبه إلى الصحراء من العنف الذي كان يلاحقه، بحثا عن الحماية والأمان، وإن حاول إخفاء ذلك (لا أريد أن تفكر صراء ولو برهة من الزمن أني أهرب هكذا من الإرهابيين الذين اتخذوا المدن الكبرى مأوى لهم. لا، أبدا . لعلها تظن أن شغلي هذا في ميدان السياحة هو طريقة مخفية للهروب إلى الأمام .. أبدا)[14] فخوف السارد ناتج عن ملاحقة أعدائه له، فهو يخاف من أن يصلوا إليه فتكون نهايته على أيديهم . لذلك لم يجد النجاة إلا في الفضاء الصحراوي، فضاء قصر تيميمون تلك المدينة الآمنة بفضل طيبة سكانها . (أقود الحافلة من خلال الليل العاتم فاسترجع ذهني . لكن ذلك الخوف المتأصل في أحشائي، دائما، مازال يقلقني وينغص علي أيامي .)[15] تبدأ هذه الرحلة السياحية من الشمال هروبا من هم المدينة وعنف الإرهاب إلى فضاء الجنوب و شساعة الصحراء ودفئها وجمال مناظرها وطيبة سكونها .

وحتى يعطي الكاتب أهمية لفضاء الصحراء في نظر المتلقي، أسس نصه على ثلاثة مرتكزات لها أهميتها وهي: أولا : سارد يتلبس بشخصية الدليل السياحي ومعرفة فنون السياحة الصحراوية . ثانيا : مجموعة من السياح الأجانب المنبهرين بفضاء الصحراء والمعجبين بمناظرها . ثالثا : فضاء الصحراء السياحي الساحر .

فضاء الصحراء والسرد السياحي :

إذا كانت المعرفة السياحية في العصر الحاضر هي معرفة تقوم على العلم وتستمد خبرتها من علوم شتى كعلم الجمال، وعلم الآثار، وعلم النفس، والعلوم الجيولوجية، وعلم الأجناس، وغيرها من العلوم . فإن الرواية التي ترصد شؤون السياحة، هي رواية معرفية سياحية لأن (الرواية ليست مجرد أحداث متتالية، بل هي عالم من الاحتمالات يمكن أن نشتق منه أنساقا معرفية، وتولد منه أبعادا فكرية .)[16] والمتلقي للرواية يلاحظ تجلي الأنساق المعرفية من خلال شخصية السارد (يمكن للسارد، باعتباره نسقا خطابيا، من استيعاب وفهم تصور معين ومخصوص لتقديم المعرفة الروائية، ومن المؤكد أن هذا النسق يخضع لوجهة نظر هذا السارد، أي أنه يقيم (ويقوم) على علاقات بين توظيف تلك المعرفة وبين طبيعتها كإطار ثابت يتيح التعبير عن موقف أو سلوك أو

فعل معين .)[17] فالسارد في النص، هو صاحب خبرة كبيرة، في المعرفة السياحية، يقوم بوظيفة المرشد السياحي العليم بالمواقع السياحية، والمدرك لمهمته التي تتطلب منه الاعتناء بالسواح، وترغيبهم في السياحة . فهو كالفنان الذي يقوم بعرض مشاهده، أمام الآخرين بطريقة جذابة، تشد انتباههم وتوقظ لديهم الرغبة، في الاكتشاف والمعرفة . سارد عليم يعرف وظيفته جيدا، بل عنده خبرة سابقة بذلك . فهو أعلم من غيره بمشاهد وجمال الصحراء، وأسرار فتنتها، يقوم بتقديمها إلى السواح المرافقين له في الرحلة، وفق منهجية المرشد السياحي التي تعتمد على المراوغة، وإثارة فتنة جمال المشاهد الصحراوية، للتأثير في نفوسهم وبعث الرغبة لديهم، لزيارة تلك الأماكن الصحراوية، إلى جانب تزويدهم بمعلومات عن الصحراء كانوا يجهلونها . فالصحراء بالنسبة لهم بيئة عذراء، يكتشفونها لأول مرة في حياتهم . فكان انبهارهم بجمالها و سحرها . و لكنهم في نفس الوقت، استشعروا خطرها، ومهالكها، فتملكهم الإعجاب والخوف معا . فهذا الفضاء الصحراوي اللانهائي، كان غائبا عن ذاكرة كل واحد منهم، وهاهم يكتشفونه لأول مرة، فينبهروا من تلك المشاهد العجيبة الغريبة الساحرة . ولكن هذا الفضاء الساحر قد ينقلب في لحظة إلى شبح مخيف قاتل لا يرحم . ومن بداية الرواية يجد المتلقي نفسه في جو سياحي جذاب مغري . في رحلة سياحية سيجوب فيها الصحراء من أقصاها إلى أقصاها وهو برفقة دليل عالم بمسالكها ومهالكها (أصبحت أشتغل كدليل في الصحراء ولماذا أقود ما يقارب الخمسين سائحا على متن شاحنتي الملقبة " شطط" عدة مرات في السنة لزيارة الصحراء تلك الصحراء التي تبهرني وتخيفني في آن .)[18] وقد يتساءل المتلقي عن امتهان السارد لحرفة الدليل السياحي، لكن السارد يبدد حيرته ويكشف له عن حقيقة امتهانه لفن السياحة (أصبحت أعمل كدليل سياحي في الصحراء بعد أن طردت من الطيران العسكري)[19] وهو في كل الأحوال لا ينسى دوره كدليل سياحي، يعرف ما يفعل مع كل سائح يرافقه في رحلته السياحية . (لم أنس رغم هذا كله الدور المناط إلى كدليل يقود زبائنه عبر الصحراء الكبيرة . وكنت أحاول دائما كسر الأفكار المسبقة بالنسبة لهذه المنطقة والمتفشية كثيرا عند السائحين .)[20] فالسائح وإن كان لا يعرف شيئا عن الصحراء، فإنه يشعر في دواخله، بأنها فضاء يوفر الراحة والسكينة . (عندما وجدت نفسي مضطرا إلى احتراف مهنة الدليل الصحراوي لأقتات منها عيشي . كنت في أول أرفض بيع الصحراء الرائعة إلى السائحين أجانب كانوا أم لا، لأنني أعلم اليقين أنهم يأتون إلى هنا بحثا عن السعادة .

وأنا أظن العكس . أظن أن الصحراء هي المكان المركزي للعذاب والآلام واللوعة . رفضت إذن أن أبيع الصحراء، في البداية، كشيء يستعمل لتغريب الزوار بطريقة مجلوبية فيأتون هكذا زرافات وقوافل مستعجلين ووجوههم منبهجة .)[21]

ولكي يحقق الكتاب تواصله مع المتلقي أظهر حرفية كبيرة في تعامله مع فضاء الصحراء، بحيث قدم مشاهد الصحراء في صور جميلة متحركة تغري المتلقي وتدفعه إلى تمني رؤيتها . (إن التشخيص الفضائي الذي يجده القارئ تشخيصا ميسورا قد يدل عند الروائي على دقة في الإعداد لروايته وانتباه متيقظ إلى الأشكال المحسوسة، وانشغال بالمنطق وحرص على إعطاء " معنى للفضاء ". مثله في ذلك كمثل الرسام .)[22] فقيام الروائي بتشخيص الفضاء الصحراوي، كان لإظهار تلك المشاهد التي تزخر بها الصحراء من جهة، ومن جهة أخرى من أجل بعث الرغبة في النفوس لزيارتها . فالصحراء تتربع على مساحة كبيرة داخل تخوم النص، فهي متحركة، متغيرة في كل مرة، تظهر في لون جديد وتلك طبيعة الفضاء الصحراوي المتغير والمتجدد . وعلى الرغم من أن فضاء الصحراء في النص هو فضاء استعاري، إلا أنه جاء شديد الارتباط بالفضاء الصحراوي الواقعي الخارج نصي . (إن الفضاء يخلق نظاما داخل النص، مهما بدا، في الغالب كأنه انعكاس صادق لخارج عن النص يدعي تصويره . بمعنى أن دراسة الفضاء الروائي ترتبط ارتباطا وثيقا بالآثار التشخيصية .)[23]. والسارد يحاول في كل مرة أن يوهم المتلقي بأنه يعرف الصحراء جيدا، فهو يعرف مكوناتها وحتى جيولوجيتها (تستأنف الحافلة إذن مسيرتها من خلال هذه الصحراء المتكونة من تراكمات حجرية غريبة وكثبان رملية رهيبة وجبال نئة وهشة وأنقاض متراكمة ومتراكبة، تملأ الفضاء وتعمره إلى حد خلق نوع من الهيجان الجيولوجي فيحول الصحراء إلى شيء ملموس، خام وأساسي .)[24] فهذا الوصف الدقيق لمكونات الفضاء الصحراوي، يثير مخيلة المتلقي ويجعله يستشعر خطورة وغموض هذا الفضاء، وأنه ليس من السهل خبر أغواره . فالصحراء تكون هادئة جميلة ساحرة، تدب فيها الحياة، لكنها قد تتغير مع بداية ظهور العواصف الرملية، فيتغير فيها كل شيء، ويبدأ الموت يزحف على كل مظاهر الحياة في أرجائها . (الصحراء صعبة المنال والمعالم، مشاكسة المناظر ومحجبة الهواء . ويبدو غروب الشمس أثناء الأيام الشتوية وكأنه كتانة بيضاوية الشكل، أحمر قان لونها ورمادي كذلك . فتلتهب الشمس الأفق وتخضبه بالخزامي . فكأن السماء مشوهة بلطخات متموجة الشكل .)[25] فمشهد غروب الشمس في الصحراء في فصل

الشتاء له سحره الخاص، ولا يوجد مثله إلا في الصحراء، ومن خلال هذا المشهد، يشبع السارد أفق انتظار المتلقي، ويجعله يعيش المشهد في ذاكرته، كأنه يعيشه في الواقع، حيث يتداخل الخيالي مع الواقعي . فالفضاء الصحراوي فضاء متعدد المشاهد لا يستقر على حال تسكنه الرهبة، كما يسكنه الخوف .(أما عن الصحراء فلا تحدث . فهي تجفف البشرة وتعطي صبغة الشيخوخة لكل من أقام فيها وعمر . الصحراء تقلص القامة وترهل السمات وتجعد البشرة .)[26] مشهد يظهر فضاء الصحراء بكل ما يحمل من قساوة وجاف ومخاطر . فهو فضاء مخيف لا قدرة للإنسان على مواجهته، نظرا لجفافه، وتعدد أمواج سرابه، فضاء يضلل المسافر ويوهمه بوجود الماء، فمن عجائب الفضاء الصحراوي، أنه يتمدد ويتباعد كلما توغل المسافر في رحلته . وكلما تجاوز أفقا سرابيا، يلد وراءه أفقا أخر، وفي نهايته يكون الموت . سراب يغري المسافر، بمواصلة الرحلة إلى المجهول واللانهائي، ويستمر توالد مشهد السراب إلى مالا نهاية، حتى يصل المسافر إلى نهايته أي إلى الموت . بعد أن يكون السراب قد أحدث خللا في توازن ذاته، نتيجة لرهبة العطش، وتمكنه من تلك الذات . فالسراب يخفي جنات الصحراء المتوارية عن الأنظار، أي يخفي مظاهر الحياة فيها .(الصحراء مخيفة بمخاطرها العديدة وفضائها اللامتناهي وكثبانها المتنقلة وهضابها الرملية وهي تتساقط من علو رهيب يزيد عن الثلاثة آلاف متر، تعبرها الوديان الضيقة حيث تنبثق منها بحيرات ملفوفة بنباتات رائعة .

الصحراء هي المكان الذي يتفجر فيه الكون وتتكون فيه الفوضى . ولهذا الغرض قررت أن أمتهنه وأعمل دليلا فيه . فأخترق فضاءاته وهضابه ووديانه ودروبه المرملة وجباله المخيفة، قمرية الصبغة، دائما في انتقال وترحال، حتى إذا ما هدأت الأمور والعوامل الطبيعية هذه، فتنبثق فجأة واحة من الواحات وكأنها خارجة من العدم . هنا تتأصل وحشية الكون وقدرته الخارقة على إهاجة كل المغامرين الذين يقبلون على الذهاب إلى أبعد الأبعاد، تحت سطوة الخوف والذعر أو السكينة والهدوء عندما تتراءى لهم، بعد أيام من الصحراء القاحلة والصمت والعدم، بحيرة صغيرة أو " قلتة " غريبة)[27] يقدم السارد مشاهد الصحراء المتغيرة، والمتعددة المناظر فهي تمتد بفضائها اللامتناهي، المجلل برمالها وجدبها، وبأوديتها وجبالها وبقصورها وبساتينها، وبكل مكوناتها الظاهرة والخفية .

فالبيئة الصحراوية تختلف عن غيرها من البيئات الأخرى، لها قوانينها التي تحكمها، ومن يخالف تلك القوانين، يعاقب بالتيه فيها، والتيه في الصحراء معناه الموت . وهي بقوانينها الصارمة تسحر السائح وتأخذ بلبه .(خاصة وأن السواح الذين كنت أقودهم في زيارة الصحراء، كان قد أصابهم مس من الهلع والدهشة والتخدر، أمام الصحراء وروعتها .)[28]

ففضاء الصحراء، الذي لا نهاية له، قد أصاب السواح الأجانب، بالهلع والخوف والرهبة، لأنه فضاء غير مألوف لديهم، فيتحولون تحت تأثير مناظره، إلى شبه أطفال . لكن هذا الفضاء الساحر، قد يحدث في لحظة من اللحظات، توترا قويا في النفس، فقد ينقلب إلى شبح رهيب مخيف قاتل لا يرحم . فالصحراء فضاء فسيح ساحر، وعالم مرتبط بالأساطير والعجائب، فهي مسكونة بالثنائيات الضدية : الحركة /السكون . الجدب / الخصب . الموت/الحياة . و العلاقة الجدلية بينها وبين الموت قوية . فنسبة الهلاك فيها، أكثر من النجاة والحياة . فهي كالبحر تلتهم في كل وقت مخلوقات كثيرة . وأداة الموت فيها العطش، فالعطش ملازم للصحراء، بل هو ابنها الشرعي الذي لا يفارقها . وإذا كان الفضاء الصحراوي يوحي بالرهبة والجدب والخوف، فإن السارد قد استغل ذلك للتعبير عن دواخله النفسية .(ذلك أنني أموت ابتهاجا أمام أي منظر صحراوي لأن الصحراء هي أحسن مكان يمكن أن يموت فيه الإنسان بلا ندم، لأن كل العوالم المتواجدة فيه تضمحل بسرعة فائقة، كما تبرز فيه كل النقائص الإنسانية والعاهات في رمشة عين .)[29] فهذه الرؤية الفلسفية لفضاء الصحراء متولدة عن حقيقة الصحراء نفسها، بغموضها وسحرها، وبما أنها مرتع للخيال، فإنها تفتح أفق الإنسان على اللامتناهي، نظرا لقساوتها ورهبة سرابها . فعشق السارد للصحراء، هو عشق صوفي ينم عن سر دفين في نفسه (قررت آنذاك أن أدفن نفسي في الصحراء وأترقب فيها منيتي لأنها كانت تبهرني وترعبني في آن .اخترت الصحراء لأنها صعبة المنال، أفضل من المدن المتضخمة، المزدحمة والمتورمة .

قررت أن تكون الصحراء طريقة الموت والانتحار .الصحراء عبارة عن فضاء متكلل ومتغير ومتلون، على ما يبدو، لكن في الواقع فالصحراء شيء آخر .)[30] فهذا الاحتراق في فضاء الصحراء، هو في حقيقة الأمر حب في جدبها ولهيبها . ولكن السارد وهو يمتهن وظيفة الدليل السياحي، يحاول أن يظهر الجانب الجميل الساحر في الفضاء الصحراوي لإغراء السياح وجذبهم نحو

الصحراء . ولكي يحقق ذلك ركز على أماكن خاصة لترغيب المتلقي في السياحة الصحراوية، ودفعه إلى المغامرة لمعرفة ما يزخر به الفضاء الصحراوي من عجائب .

مكونات الفضاء الصحراوي :

- **الكثبان الرملية** : الصحراء تعني الامتداد اللامتناهي كما تعني العزلة والقحط والوحشة وسعة الفضاء، وهي تغير وجهها كلما تحركت الرمال . وأسطورة زحف الرمال تعني أسطورة الهلاك والموت، فالرمال تبتلع أماكن بعد أن ترحل عن أخرى . وحركتها مرتبطة بحركة الريح . فثنائية الريح /الرمال . السكون / الحركة . والموت / الحياة . هي الأصعب في الصحراء، ففي حركة الرمال يكون الموت، لأن العواصف الرملية تغير المكان وتحدث خللا في مكوناته، فهي كالطوفان الذي يجرف كل شيء أمامه، وعندما تسكن تلك العواصف الرملية تعود الحياة من جديد لفضاء الصحراء .

وهكذا تتحول مكونات المشهد الصحراوي إلى رموز ودلالات تتنوع وتتعدد في تنوعها الإعجاب، وفي تعددها الرهبة والخوف . (كان الطقس حارا في ذلك اليوم والزوبعة الرملية عاتية، فتعطلت الحافلة عندما كنت أحاول تسلق كثيب يبلغ مائة وخمسين مترا من العلو وكان مشهورا عند أهل تيميمون بمناعته وعسره)[31]

- **البرك المائية** : قد يصادف السائح في الصحراء وجود بعض البرك المائية في أماكن خاصة، وإن كانت البيئة الصحراوية شحيحة الماء، فهي رمز للحياة في مقابل بحر الرمال، الذي هو رمز للموت في هذا المكان الرهيب المخيف . (فأغتنم فرصة هذه الراحة النفسية وآخذ بمجموعة السواح إلى " قلتة " رائعة الجمال وصافية المياه، فيعومون فيها ساعات طويلة ويمرحون ويعبثون كالأطفال الصغار .)[32]

- **الجبال الصخرية** : تكتسي جبال الهقار وخاصة جبل أسكرام . جمالية خاصة في النص، فهو علامة متميزة على الشموخ والعلو، بين جبال المنطقة، إلى جانب ما يتوفر عليه من رهبة وجاذبية في مشاهده المتعددة والمتلونة . (لا يعرف الناس معنى اللوعة إذا لم يشاهدوا من أعلى جبال الأسكريم هذا الاضطراب الكوني وهذه الفوضى المنجمية اللذين يكونان منطقة الهوقار حيث تتراكم الرمال والكثبان والجبال بطريقة مخيفة ومريبة .)[33]

- **الحدائق والبساتين الصحراوية** : تعرف الصحراء بجمال قصورها، كما تعرف بجمال بساتينها وقد حاول السارد أن يقدم مشاهد لبساتين قصر تيميمون (تعبق روائح عطرة من خلال بساتين تيميمون الصغيرة ... ويقضي أصحاب هذه البساتين الرائعة وقتهم في العمل الدؤوب، لا يكلون ولا يتوقفون، فيمنعون هكذا تراكم الرمال داخل القنوات وتكاثر الأوحال والأوساخ فيها .)[34]

- **فضاء القصور الصحراوية** : تنتشر القصور في الصحراء، في أماكن وجود الماء، وهي تتميز بهندستها المعمارية، التي تتلاءم مع جو الصحراء الشديد الحرارة . وهي معمارية تسحر المشاهد وتشد نظره، هندسة تتلاءم مع جو العواصف الرملية . وقد جاء النص على ذكر البعض منها كقصر تيميمون، وقصر تماسين، وقصر فاتيس . إلا أن القصر الذي حاز مساحة كبيرة في النص، قصر تيميمون، لروعته وجماله وهندسة بنائه ولون مساكنه، وجمال بساتينه ومجاري مياهه.

- **فضاء قصر تيميمون** : وسط فضاء صحراوي مترامي الأطراف تبرز [تيميمون] بكل جمالها وسحرها كموطن للسعادة، والأمن والهناء، والراحة والتأمل والسياحة، وبكل مكوناتها من قصور و بساتين ومياه . فهي فضاء للحياة في محيط غفر، خال من كل عناصر الحياة، لجدبه وقحطه، قصر يحاصره القحط والجدب من كل الجهات . تظهر في النص كعلامة متميزة، أضفت على أحداثه هالة سحرية . (تعودت الوصول إلى تيميمون مع طلوع الشمس حتى يتمكن السواح من اكتشاف هذا القصر البربري العتيق بواحته الخصبة حيث نظام توزيع مياه السقي يعود اصله إلى آلاف السنين، فكان يبهرني بتشعباته وتشابكاته . لذا كنت أقطع المسافة بين المنيعة وتيميمون ليلا . ولما قدمت بعض الإرشادات للزبائن استغربوا القضية في أول الأمر)[35] ويظهر السارد اهتمامه بقصر تيميمون حيث قدم للمتلقي صورة هذا القصر .(تيميمون عبارة عن قصر بربري عتيق مبنية أسواره بالصلصال الأحمر والمحبحب، فسميت بالواحة الحمراء . يتربع هذا القصر على صخرة تشرف من أعلى أمتارها العشرين على الواحة . يملك القصر مسجدا قديما رائعا ذا صومعة تبان وكأنها حذرة من كثرة الغزوات التي كانت تتسلط على القصر، قديما، بالمرصاد لكل طارئ آت من الصحراء التي تحوط تيميمون . تلك الصحراء التي تزخر بكثبانها الرملية والزعفرانية اللون والمتحركة بسرعة فائقة رغم أحجامها الكبيرة .)[36]

ومع تمدد فضاء الصحراء وتواصل الرحلة، تزداد معها رغبة الذوات، في اكتشاف أسرار هذا الفضاء اللانهائي . وكلما تم التوغل في أعماق الصحراء، كلما اكتشف الإنسان شيئا جديدا وسرا من أسرارها . (الحافلة تشق طريقها الصحراوي هكذا وكأنها أصبحت عرضة للرياح المتعاكسة وهي- الرياح - عبارة عن عصافير ضخمة ونهمة تحلق مترنحة بطريقة بهلوانية، فتنبع من خلال الأجنة الصحراوية المشبعة بروائح الفواكه الطازجة والمتساقطة تحت الأشجار، فتتعفن وتفوح في كل الأرجاء، داخل البساتين الصغيرة .)[37] وكلما تواصلت الرحلة، كلما زاد الفضاء الصحراوي تمددا، وذلك ما يثير تعجب السياح، لأن المشهد غير مألوف لديهم . فهذا الفضاء الواسع الذي لا يحده حد، والمجلل بالسكون، يسحرهم ويثير فيهم، رغبة مواصلة الرحلة على الرغم من مخاطرها لمواصلة الاكتشاف والمتعة . (حينما يبدي الخيال اهتمامه بشيء ما فإنه يعمق من قيم هذا الشيء، بحيث يضيف الخيال إلى قيم الواقع . ومن ثم، فالمكان الذي ينجذب نحو الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا، ذا أبعاد هندسية وحسب .)[38] والملاحظ في النص أن الكاتب يقوم بتقديم المكان الواقعي، حتى يطمئن المتلقي ثم يقوم بأسطرته ليتلاءم مع فضاء الصحراء .

- **فضاء الألوان** : بما أن رشيد بوجدرة من كتاب الرواية الجديدة، لذلك جاء نصه (غاص بالأصوات والألوان والروائح)[39] حيث نجد أنواعا من الألوان حاضرة في النص . سواء منها ما تعلق بالطبيعة أو بالإنسان، وإن كان اهتمام السارد انصب على ألوان الطبيعة الصحراوية أكثر نظرا لقوة تأثيرها فيه وهو ابن الشمال .

(الصحراء تحوط بالحافلة من كل الجهات وكأنها عريسة لا يمكن وضعها داخل رموز رائعة وممضة في آن . ودائما الصحراء المنتشرة حولنا ورغم الظلام الحالك، فهي مركز الشبق والدوار والحضر والكرب، وإذا جاء الليل يتلون الأفق بلون ما بين البرتقالي والأصفر .)[40]

- **سحر الليل الصحراوي** : الليل الصحراوي هو ليل أسطوري حيث يعمل السارد على رصد جماليات الفضاء الصحراوي من خلال عرضه لمشاهدة القمر ليلا . (ترقبت العاشرة مساء للتوقف . إنها الساعة الملائمة لبروز النجوم وكأنها تعج عجا على صفيحة السماء وكأنها من الماس المخضب بالفضة اللماعة . فيشعر الإنسان آنذاك أنه يحملها كلها على أكتافه، حقيقة .)[41] من خلال هذا المشهد الرومانسي يتعامل السارد مع ليل الصحراء أثناء رحلته السياحية . فهذا الليل

الصحراوي العجيب . (الصحراء - ليلا - عبارة عن تظليل رهيب . نوع من الحلم اليقظ. الصحراء، يفقد الإنسان إحساسه بالواقع، في الصحراء كذلك ... لكن كل هذه الروعة خيالية. الصحراء شرسة، قاسية، صعبة المنال . فليس هناك إلا السواح الذين يعبرونها مر الكرام للطن - هيوليا - بأنها (الصحراء) خلابة ومذهلة . ذلك أنها، بالنسبة لي تمثل المكان للتلوع والشعور بالعذاب والمقت والتعاسة، وفي الصحراء تعلمت اللوعة والوجع . وفيها كدت أموت بردا وقساوة. لذا اخترت أن آتي إليها، أن أسوح الناس فيها وأن أتعلم معنى الألم والوجع .اخترت الصحراء فقط لأن أتألم فيها .)[42] الصحراء موطن الأضداد وموطن العجائب، لذلك كان ليلها متميزا وساحرا . (كان الليل الصحراوي يزداد عمقا وشبقية وصلابة . صعد القمر إلى السماء صعودا . اقترب الشفق وابتعد . كان القمر بلوري اللون، مستدير الشكل، مصقع المظهر . كاد أن يمسي شجرة ورد ضخمة وعارشة، متسلقة كل الجدران المحيطة بها .)[43] يكشف المشهد عن جمالية الليل الصحراوي، من خلال روعة منظر القمر، لحظة تجليه في أجمل صوره، وهي صورة لا تظهر إلا في فضاء الصحراء، فهناك علاقة حب بين القمر والصحراء .(ذلك أن العملية الوصفية حين تبدأ، سواء أكانت واقعية أم موهمة بالواقعية، تفرض على الواصف اللجوء إلى الانتقاء والاختيار، نتيجة ازدحام الأشياء والتفصيل، الشيء الذي يحتم عليه تنشيط بعضها وتخدير البعض الآخر)[44] لقد عمل الكاتب على تقديم صورة متكاملة عن فضاء الصحراء، فهي في نصه فضاء كوني لامتناهي ساحر المناظر، ومخيف تتجلى فيه رهبة غامضة يسكنها الجدب والقحط، وأمواج السراب التي لا تنتهي . (الصحراء مخيفة بمخاطرها العديدة وفضائها اللامتناهي وكثبانها المتنقلة وهضابها الرملية وهي تتساقط من علو رهيب يزيد عن الثلاثة آلاف متر، تعبرها الوديان الضيقة والعميقة حيث تنبثق منها بحيرات ملفوفة بنباتات رائعة.)[45] تلك هي الصحراء بكل مكوناتها . ساحرة متهجمة، غاضبة ساكنة متحركة، حلبة لصراع الحياة مع الموت . وإن كان الروائي قد قدمها للمتلقي في صورة مشوهة، فهي تتجلى في بعض مشاهد النص كفضاء للتيه والموت، وبذلك كانت نقيض للحياة، فضاء قاتل وضار وموحش، فضاء للإغواء والخداع.

وهو موقف يعبر عن عدم معايشة الكاتب للصحراء، فهي تبعث في نصه، خالية من الذوات الصحراوية، غريبة، باستثناء أصحاب المحشاشات والمخدرات والرقص . وإننا وإن كنا قد أصدرنا هذا الحكم فإننا نعلم بأن لكل روائي فلسفته الخاصة التي يكتب من خلالها، وأن لكل عمل إبداعي

منطقه الفني وأسئلته التي يطرحها على المتلقي . فالصحراء وإن كانت فضاء لا متناهي، فهي تتميز بجمال ساحر، و برمزية خارقة جعلت منها فضاء، ملهما للأدباء والفنانين والمغامرين وطالبي السكينة والهدوء .

المراجع :

1 - رشيد بوجدرة رواية تيميمون منشورات ANEP 2007

2 - إبراهيم خليل بنية النص الروائي الدار العربية للفنون ط2010/1

3 - حسن نجمي شعرية الفضاء المركز الثقافي العربي ط2000/1

4 - محمد القاضي وآخرون معجم السرديات الرابطة الدولية للناشرين المستقلين

5 - مجموعة من الباحثين الرواية المغربية أسئلة الحداثة دار الثقافة ط1996/1 الدار البيضاء

6 - مجموعة من الباحثين الفضاء الروائي أفريقيا الشرق تر/ عبدالرحيم جزل ط2002 الدار البيضاء

7 - صلاح صالح الرواية العربية و الصحراء منشورات وزارة الثقافة السورية 1996

8 - سعيد بنكراد السرد وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي ط2008/1

9 - عبد الفتاح الحجمري تخيل الحكاية المجلس الأعلى للثقافة 1998 .

10 - عبد اللطيف محفوظ وظيفة الوصف في الرواية منشورات سرود ط 2009/3 الدار البيضاء .

11 - غادة الإمام جاستون باشلار جماليات الصورة التنوير للطباعة والنشر ط2010/1 لبنان

12 - فاضل ثامر المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي دار المدى ط2004/1.

13 - ولاس مارتن نظريات السرد الحديثة تر/حياة جاسم محمد المجلس الأعلى للثقافة 1998 القاهرة

14 - عبد الرحمن التمارة سردية المعرفة " قراءة في رواية جيرترود لحسن نجمي مجلة علامات ع 2012/38

الهوامش:

[1] - محمد القاضي وآخرون معجم السرديات الرابطة الدولية للناشرين المستقلين ص201

[2] - مجموعة من الباحثين الرواية المغربية أسئلة الحداثة دار الثقافة ط1996/1 الدار البيضاء ص 113

[3] - ولاس مارتن نظريات السرد الحديثة تر/حياة جاسم محمد المجلس الأعلى للثقافة 1998 القاهرة ص 57

[4] - إبراهيم خليل بنية النص الروائي الدار العربية للفنون ط2010/1 ص292

[5] - محمد القاضي وآخرون معجم السرديات ص 136/135.

[6] - ينظر فاضل ثامر المقموع والمسكوت عنه في السرد العربي دار المدى ط2004/1 ص 123 .

[7] - محمد القاضي وآخرون معجم السرديات ص138/137 .

[8] - ينظر محمد القاضي وآخرون معجم السرديات ص 137 .

[9] - صلاح صالح الرواية العربية و الصحراء منشورات وزارة الثقافة السورية 1996 ص 221 .

[10] - صلاح صالح الرواية العربية و الصحراء ص 129 .

[11] - سعيد بنكراد السرد وتجربة المعنى المركز الثقافي العربي "2008/1 ص 240 .

[12] - حسن نجمي شعرية الفضاء المركز الثقافي العربي ط2000/1ص 47 .

[13] - صلاح صالح الرواية العربية و الصحراء ص 201 .

[14] - رواية تيميمون ص 32

[15] - رواية تيميمون ص 10/9

[16] - عبد الرحمن التمارة سردية المعرفة " قراءة في رواية جيرترود لحسن نجمي مجلة علامات ع 2012/38 ص25 .

[17] - عبد الفتاح الجحمري تخيل الحكاية المجلس الأعلى للثقافة 1998 ص 10 .

[18] - رواية تيميمون ص 15

[19] - رواية تيميمون ص 31

[20] - رواية تيميمون ص 51

[21] - رواية تيميمون ص 47/46

[22] - مجموعة من الباحثين الفضاء الروائي أفريقيا الشرق تر/ عبدالرحيم جزل ط2002 الدار البيضاء ص 89 .

[23] - مجموعة من الباحثين الفضاء الروائي ص 20 .

[24] - رواية تيميمون ص 12

[25] - رواية تيميمون ص 53

[26] - رواية تيميمون ص 73

[27] - رواية تيميمون ص 95

[28] - رواية تيميمون ص 16

[29] - رواية تيميمون ص 96

[30] - رواية تيميمون ص 42

[31] - رواية تيميمون ص 60

[32] - رواية تيميمون ص 99/98

[33] - رواية تيميمون ص 47

[34] - رواية تيميمون ص 79

[35] - رواية تيميمون ص 30/29

[36] - رواية تيميمون ص 65

[37] - رواية تيميمون ص 7/6

[38] - غادة الإمام جاستون باشلار جماليات الصورة التنوير للطباعة والنشر ط2010/1 لبنان ص 292

[39] - حسن بحراوي بنية الشكل الروائي ص 36

[40] - رواية تيميمون ص 11

[41] - رواية تيميمون ص 30

[42] - رواية تيميمون ص 33

[43] - رواية تيميمون ص 69

[44] - عبد اللطيف محفوظ وظيفة الوصف في الرواية منشورات سرود ط 2009/3 الدار البيضاء .

[45] - رواية تيميمون ص 95